مقياس : حرف وصناعات في العالم القديم

سنة الثالثة ليسانس

أستاذ المادة : حكيم حميدة

الحرف والصناعات في اليونان العتيقة

أغلب الدراسات حول موضوع الحرف في الحضارات القديمة متفرقة ومنجزة بصفة مستقلة (هناك دراسات متخصصة حول مواضيع معينة منحصرة في حرفة واحدة لكن من الصعب إيجاد مراجع تتطرق إلي كل الحرف)

الصناعة التقليدية في بلاد اليونان نشاط اقتصادي بالغ الأهمية لكنه جد محتقر ومنخفض في سلم القيم الاجتماعيةّ. يتمثل في كل الحرف اليدوية فلاحيه أو غير فلاحيه، تمارس في إطار منزلي أو في ورشات تشمل عشرات العمال وهي مذكورة في عدة مصادر يونانية رغم ممارستها من طرف أقلية خاصة من طبقة العبيد والأجانب (metèques)

بطبيعة الحال يصعب إعطاء تعريفا خاصا للصناعة التقليدية أو النشاط الحرفي أو حتى تطبيق هذه الكلمات الحديثة علي العالم القديم بصفة عامة لان في العالم اليوناني مثلا ، كان الحرفي يعتبر أيضا فنانا وكثرا ما نجد بعض الحرف تحت حماية بعض الربات(muses) وعددها 09 وهي بنات الإله Zeus وتتحكم في بعض الفنون كصناعة الأدوات الموسيقية ما يتعلق بمهن المسرح مثلا.

رغم ذلك ، ليس هناك كلمة تدل بالضبط علي الصناعة الحرفية مع العلم أن المصادر المعروفة عادة ما تقدم وصفا رديئا للحرفي بشيء من الاحتقار، فالمؤرخ والعسكري Xénophon(ق 5- 4 ق-م) مثلا ذهب إلي حد القول بأنه "من الطبيعي احتقار الحرف اليدوية لأنها تخر ب الجسم... " وفي بعض المدن المعروفة بتقاليدها الحربية(سبارطا مثلا)، يمنع تجنيد الحرفين ويمنع علي المواطنين الأحرار ممارسة نشاطات حرفية .

كان النشاط الزراعي مفضل باعتباره نشاطا يتماشى مع النظام الاقتصادي والاجتماعي الساري المفعول: التقشف والاكتفاء الذاتي (Autarcie)في أغلب الأقاليم اليونانية.ففي هذا الصدد، أقترح أفلاطون مثلا في كتابه المدينة الفاضلة (la république)،تجريد الحرفين من صفة المواطن (citoyen) هذا خاصة في المدن المحاربة كمدينة سبارطا والمدن المرتبطة بالأرض كمدينة: Thèbes في حين تبدو المدن التجارية أكثر ليبرالية وتعترف نوعا ما بشرعية مواطنة سكانها والحق في ممارسة الأنشطة الحرفية .ففي الفترة الكلاسيكية(القرن 6- 4 ق-م)كان ما يقارب 10000 حرفي من حوالي 40000 مواطن في مدينة أثينا يمارسون الصناعة التقليدية التي كانت نشاطا مربحا مع العلم أن أغلبية المصادر التي تذكر الحرف، مصادر أدبية ينحدر أهلها من طبقة المواطنين المثقفين مما يبرر الميول إلي إهانة الحرف (Xénophon, Aristote, Platon…)

في الحقيقة كان النشاط الحرفي يمارس بنسبة كبيرة من طرف طبقة الرقيق خاصة في المناجم وصناعة المعادن، الفخار، النحت الخ... ويعتقد أن أجرهم (salaire) كان يعادل أجر العمال الأحرار، في حين تشتغل طبقة الأجانب في الو رشات والأنشطة التجارية.

كان النشاط الحرفي غير متمركز في مكان معين بحيث نجده في المدن والقرى وخاصة في مساحات مخصصة (أحياء صناعية) لتفادي بعض الأذى(nuisances) ولأسباب مرتبطة بإيصال المواد الأولية

تمارس أيضا الصناعة التقليدية في إطارها المنزلي (oikos) والمثال الأكثر تعبيرا علي ذلك تبينه الصورة الأسطورية لبنيلوب (Pénélope) زوجة الملك Ulysse التي كانت تنسج خلال 20 سنة مدة انتظار عودة زوجها ، وهذه الصناعة التقليدية تعتمد خاصة علي تحويل المواد المنتجة في إطار الملكية العائلية إلي مواد يتم تسويقها فيما بعد خاصة الأنسجة نظرا لسهولتها وبساطة اللباس اليوناني لا يتطلب مهارات كبيرة (غطاء مستطيل من الصوف أو من الكتان ممسوك بإبزيم)، فالنساء كانت تمارس كل النشاطات النسجية كالندف (cardage) والفتل (filage)والنسج (tissage) وكثرا ما نجد مشاهد علي الأواني الفخارية تخلد مختلف هذه الإعمال وحتى في قبور هنا عادة ما توضع أدوات النسيج كما هو الحال للأسلحة بالنسبة للرجال.

- تمارس النساء أيضا (خاصة العبيد) كل ما يتعلق بالصناعات التحويلية الفلاحية (transformation des produits agricoles) وهذا في الإطار المنزلي وبعض الصناعات الأخرى كعصر الزيتون والعنب وتحضير الجلود (industrie du foulon) وصناعة الفحم لكن من طرف العبيد الذكور.

- تدل بعض المصادر الأدبية علي صناعة الخشب خاصة أدوات الحرث وفي قصيدة Odyssée للشاعر هوميريوس (Homère)،إشارة إلي أدوات الحدادة أو السبك (القرن 8 ق- م)

- صناعة الفخار خاصة الأجر أو اللبنة (brique) والفخار الاعتيادي والجرار (pithoi) كانت متمركزة خاصة في الأرياف لتخزين الموارد (الزيوت والخمور) وذكرت صناعات أخري في مصادر أدبية أخري كطحن الحبوب ،النجارة ومن خلالها، تبدو الصناعة التقليدية مرتبطة أساسا بالفلاحة.

- من جهة أخري، نجد الورشة الحضرية تسمي(Ergasterion=Atelier boutique urbaine)وهو مكان للعمل والبيع في أن واحد لأنه عادة لا توجد دكاكين خاصة فقط بالبيع إلا في ضواحي الساحة العامة (Agora) وغالبا ما تكون هذه الو رشات/ دكاكين من نصيب المواطنين الأحرار علي الأقل في أثينا وتنتشر في مختلف أرجاء المدينة نظرا لكونها قليلة التلوث ،أو مجمعة في أحياء صناعية مختصة (البرونز ، الفخار...) أو خارج أسوار المدينة عندما يتعلق الأمر بالأنشطة الملوثة أو تضر المحيط كنحت الحجارة مثلا. أو متطلبات نقل المواد الأولية وهذا الابتعاد حسب ما يعتقد لا علاقة له بالتميز العنصري بين الطبقات بل لتفادي التلوث أو الضجيج وبعض الروائح الكريهة.

- أنواع الإستغلالات الحرفية "تتراوح" ما بين الحرفي الحانوتي (artisan boutiquier) إلي معلم الحرفة (maitre de métier) وتختلف أيضا من حيث مساحات الدكاكين وعدد الحرفين في كل ورشة لكن تبدو بأنها عائلية قبل كل شيء ولزبائن محلين في البداية وينتجون عادة حسب الطلب نظرا لضيق المحلات وصعوبة عرض السلع.

في القابل تتميز حرف المعلمين أو أهل الحرف بمهارات معترف بها وإمكانيات مالية عالية نسبيا بحيث كانت تظم عدة حوانيت وتشغل أكثر من 30 عامل من طبقة العبيد وتتميز منتجاتها بالنوعية الرفيعة (اللباس، الصياغة، النقش علي النصب، الفخار الملون...).

- مع التطور وتدفق الأموال، أصبحت بعض الو رشات كبيرة ومسيرة من طرف أغنياء لا علاقة لهم بالحرف بل مجرد مستثمرين (investisseurs) وتشغل خاصة العبيد المقسمين عبر المحلات طبقا لمتطلبات الإنتاج وليس بالضرورة بنفس المكان وفي بعض الأحيان عن طريق الإيجار.

تتميز مختلف هذه الو رشات بالربح المضمون تقريبا لان الطلب يسبق الإنتاج (sur commande) هذا ما يفسر لنا تواجد الأنواع الثلاثة دون منافسة ملحوظة إلا في بعض الحالات مثل الأسلحة (لا يوجد طلب أثناء السلم).

-التخصص (spécialisation) كان مرتبط بتنوع الأنشطة الحرفية خاصة في المدن الكبيرة وأصبح واضحا في بعض الو رشات المتخصصة في صنع أدوات معينة من البداية إلي النهاية ،فالفخار مثلا ينقسم إلي عدة مراحل بعدما كان تتكفل به ورشة واحدة وشخص واحد، فنجد الذي يغسله والذي يشكله والذي يقوم بطهيه ثم الذي يزخرفه

(F) Blonde, Arthur Muller, l'artisanat en Grèce ancienne, Lyon 1998,
- P. Casier, le statut social des artisans ….Paris 2007
-Rousset (P), la Grèce et l'orient, des guerres médiques à la conquête romaine, Paris 1928

-(A) Esposito, (G) M. Sanidas ; quartiers artisanaux en Grèce ancienne: Une perspective méditerranéenne, Septentrion 2012.

- قصة ألحضارة حياة اليونان (موسوعة) http://www.marefa.org/sources/index.php